مجلة العلوم الإنسانية العربية
المجلد (٦) العدد (٢)
الإصدار العشرون
(١-١١) ٢٠٢٥
Arab Humanities Journal
Middle East Institution of scientific Publishing

صورة الذّات الإنسانيّة في رواية أهل الهوى ل هدى بركات

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

د. سلمى عطالله
أستاذة النّقد الحديث ومنسّقة دائرة اللّغة العربيّة، جامعة سيّدة اللّويزة، لبنان.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٥ أبريل ٢٠٢٥م

الملخّص

تبدو الذّات الإنسانيّة المتمثّلة بالرّجل، في رواية "أهل الهوى"، شخصيّة استثنائيّة غريبة، ذات صورة ضائعة الملامح، مختلفة عن العديد من صور الذّات في الرّوايات العربيّة. فالرّجل، ولأسباب غير واضحة، نراه غير سويّ، يعيش حياة تتأرجح بين اللّامعنى واللّاقرار... ما جعل ذاته غامضة، مضطربة، مشتّتة، تائهة في عالم من المتناقضات، وجعل معظم الوقائع والأحداث والصّفات تحمل المعنى ونقيضه. كما جعل هذه الذّات تتخبّط في عالم الجسد وما يدور في فلكه من مادّيّة وغرائز، وتحديدًا الجنس الّذي بات محور الرّواية، حتّى وصل بها الأمر إلى المشهد الحيوانيّ... ما أفشل العلاقة بين الرّجل والمرأة، وجعل الذّات عاجزة عن امتلاك نفسها وعن التّفاعل مع الآخر الّذي كاد يغيب من الرّواية. كما جعل هذه الذّات هجينة فارغة من الأهداف الحقيقيّة، غير منشغلة في عمل ما، أو منسوب إليها إنجاز ما أو أحلام أو طموح... بل كانت غارقة في عالم النّسيان الّذي أفقدها علاقتها بالزّمن، ففقدت علاقتها الوجوديّة الحقيقيّة بنفسها وبالبشر... لقد كانت هذه الذّات ضحيّة ما يفعله الآخر بها، خصوصًا في الحروب... من خلال إفراغها من جوهرها وكينونتها، والإيغال بها في الضّياع واللّاهويّة... مشوّهًا أجمل ما يمكن أن تعيشه الذّات الإنسانيّة وهو الهوى.

الكلمات المفتاحية: الذّات الإنسانيّة، المتناقضات، الجسد والجنس، اللّاأهداف، النّسيان، إفراغ الكينونة.

Abstract

The human self represented by the man, in the novel “Ahl al-Hawa”, appears to be an exceptional, strange character, with an image with lost features, different from many images of the self in Arabic novels. As we see the man, for unclear reasons, abnormal, living a life that oscillates between meaninglessness and desolation… Which made his self ambiguous, confused, scattered, lost in a world of contradictions, and made most facts, events, and characteristics carry the meaning and its opposite. It also made this self flounder in the world of the body and what revolves

around it of materialism and instincts, specifically sex, which became the focus of the novel, until it reached the animal scene. That failed the relationship between the man and woman and made the self incapable of owning itself and interacting with the other, who was almost absent from the novel. It also made this self a hybrid, devoid of real goals, not engaged in any work, or attributed to any achievement, dreams, or ambition. Rather, it was immersed in the world of oblivion, which made it lose its relationship with time and, furthermore, lost its true existential relationship with itself and humans… This self has been a victim of what others do to it, especially in wars... by emptying it of its essence and being, and plunging it into loss and non-existence… Distorting the most beautiful thing that the human self can experience, which is passion.
Keywords: The human self, contradictions, body and sex, aimlessness, forgetting, emptying being.

أوّلًا: المقدّمة

تبدو الذّات الإنسانيّة المتمثّلة بالرّجل، في هذه الرّواية، شخصيّة استثنائيّة غريبة، ذات صورة ضائعة الملامح، وبالتّالي، تختلف عن العديد من صور الذّات في الرّوايات العربيّة. فالرّجل، في الرّواية العربيّة بعامّة، هو صاحب صفات واضحة، تتنوّع بين الإيجابيّة والسّلبيّة... أمّا في رواية "أهل الهوى"، فالرّجل، ولأسباب غير محدّدة بدقّة، نراه تائهًا، مضطربًا، وأحيانًا غير سويّ، يعيش حياة تتأرجح بين اللّامعنى واللّاقرار... ما يجعل الإشكاليّة الأبرز في هذه الرّواية تتمظهر من خلال أسئلة هي التّالية: ما هي تفاصيل الصّورة الّتي عاش الرّجل في إطارها؟ ما كانت أهدافه؟ هل فقِهَ معنى الحبّ وعاشه أو مسخه بما يتلاءم مع شخصيّته الغريبة؟ والمرأة، ما كان دورها في كلّ هذا؟

أسئلة سوف نحاول الإجابة عنها في هذه القراءة ومن خلال ثلاثة أجزاء. يعالج الجزء الأوّل صورة الذّات التّائهة في عالم من التّناقضات، أمّا الجزء الثّاني فيعالج صورة الذّات المتخبّطة في عالم الجسد، فيما الجزء الثّالث يتناول صورة الذّات الفارغة من الأهداف الحقيقيّة.

وقد اعتمدت هذه القراءة على المنهج التّفكيكيّ الّذي وضعه الفيلسوف الفرنسيّ المعاصر "جاك ديريدا" (Jacques Derrida). وتقوم هذه القراءة على ”الشّكّ في كلّ الثّوابت والإيديولوجيّات، وتسعى، من خلال قراءة مختلفة، إلى زعزعة هذه الثّوابت وهدمها، ذلك من خلال إبراز التّباينات والتّناقضات والمآزق والازدواجيّة الّتي تكمن في النّصوص.“ (العجلتوني ٢٠١٥)، كما على أنّ ”كلّ شكل أو منطق أو مسلّمات أو فرضيّات تحمل في ذاتها مقوّمات تفكيكها وعناصره.“ (Derrida 2014: 42) فليس هناك مركز يطلق المعنى، وما يقوم به ”ليس سوى تشظّيات

للمعنى وإزاحات له عن أيّ مركز. فليس هناك أيّ حقيقة ثابتة بل إنّ ما يوجد هو هجنة جعلته يشكّك بالأصل والمنشأ والكون وتاريخه والدّين والهويّة.'' (أيّوب ٢٠١١: ١٥١)، فالمتلقّي يقارب النّصّ ولا يتلمّس فيه أيّ معنى. يقول "ديريدا": ''إنّ النّصّ لا يكون نصًّا إلّا إذا أخفى عن النّظرة الأولى قانون تركيبه وقاعدة لعبته، وهو يظلّ لا مدركًا على الدّوام.'' (Derrida 1972: 71)

ثانيًا: صورة الذّات الغامضة والتّائهة في عالم من التّناقضات

يؤكّد "جاك ديريدا" أنّ ''الذّات متعدّدة ومتناقضة كالنّصّ. لذلك فإنّ تناقضات نصّ تجعل أيّ بحث عن نيّة منسجمة لدى المؤلّف بحثًا وهميًا.'' (زيما ٢٠٠٦: ٧٠). يبدو الرّجل في رواية "أهل الهوى" غامضًا، تائهًا في عالم من التّناقضات. فالوقائع، في هذه الرّواية، تحمل المعنى ونقيضه، حتّى إنّك كمقارب لها لا يقرّ لك قرار في فهمها، وفي فهم الرّجل الّذي عاشها، أو على الأقلّ الوصول إلى معنى واضح. فالقتل بما يحمله، عادة، من مشاعر سلبيّة تتجلّى في الشّرّ والخوف والقلق والتّوتّر والحزن والإرباك وضياع الذّات... نراه هنا يتلاقى مع الرّاحة والعودة إلى الطّفولة والولادة الجديدة والقداسة والخفّة والفرح والسّلام واكتمال الرّوح واستعادة الذّات... وقد احتلّت هذه المشهديّة التّناقضيّة الصّفحات الأولى من الرّواية، بحيث بدأت الرّواية بفعل القتل ''بعد أن قتلتها... تمدّدت على الصّخرة وتبيّنت أنّها ملساء ناعمة كفراش وثير... استعدت غلافي الحافظ متينًا كاملًا خاليًا من أيّ تشقّق أو ثقوب. جديدًا... عرفت أنّي بدأت أملك الآن ما بحثت عنه طوال عمري. أنّي أملك الآن كلّ نفسي.. كأنّني أولد... إنّي أفور وأفيض على العالم الرّضيع كحليب مبارك. أفيض ولا أنقص. ولا سبيل إلى إنقاصي... أمشي خفيفًا طائرًا... أغنّي ويخرج ذهب كثير من فمي. أغنّي مبشّرًا بالرّبّ...'' (بركات ٢٠١٢: ٧) ''... هذا السّلام... كلّ هذا الهناء الّذي يملأني...'' (١١) ''... كنت في أحسن حالاتي. كنت إنسانًا سعيدًا.'' (١٤) ''في تلك اللّحظة العارمة بالسّعادة بالذّات. في اللّحظة الّتي قبضت فيها على روحي الطّازجة الكاملة الطّاهرة الوليدة لتوّها...'' (٢٩) وفي إطار هذه الصّورة، تقف مبهوتًا، عاجزًا عن الإمساك بالمعنى وبالدّلالات الّتي يمكن أن تحملها هذه الكلمات، أو بالأسباب الّتي أدّت إليها... خصوصًا أنّ النّصّ الرّوائيّ ينتهي بالتّشكيك بها وبفعل القتل الّذي قامت به الذّات المتمثّلة بالرّجل، كما بالمشاعر الّتي رافقت هذا الفعل ''ربّما لم أقتلها. أشكّ عميقًا بأنّي أمسكت رأسها ورحت أضربه على الحجارة حتّى شجّ وماتت. أشكّ في قدرة جسمي على هذا، وأشمئزّ منه. لم تكن هناك حين هشلتُ في الوعر... ليس بسبب أنّها صعدت إلى السّماء، بل ربّما لأنّي لم أقتل أحدًا....'' (١٨٩) وفي إطار هذه الصّورة أيضًا، يبرز التّناص الدّينيّ من دون أيّ مبرّر له أو داع، بشكل يتناقض مع واقع الأمر، ويجعلك، بالتّالي، غير ممسك بالدّلالات والمعاني... فقد استحضرت الذّات، في مشهديّة القتل، صورة القدّيس ويسوع مشبّهةً نفسها بهما: ''عرفت أنّي قدّيس، وأنّ جسمي هذا قد بدأ صعودي البطيء ولكنّ المحقّق، وأنّهم إذ سيفتحون ذات يوم قبري فلن يجدوني...'' (٨) كما استحضرت صورة الجنّة وصورة البشارة باسم الرّبّ ''نأكل الثّمرة فندخل الجنّة نعود إليها

بالاستحقاق والجدارة المناسبين... أفتح ذراعيّ... أغنّي مبشّرًا باسم الرّبّ الّذي عرفت...'' (٩) كذلك استحضرت صورة طوفان النّار والكبريت من التّوراة، وشخصيّة المهدي من العقيدة الشّيعيّة مازجةً بينه وبين المسيح، قائلةً: ''أنا المسيح المهديّ... طوفان من النّار والكبريت وأمحقكم... ورحت أصرخ الله أكبر... الله أكبر... سأقيم العدل. الله أكبر...'' (٧٨) وأمام كلّ هذه المشاهد، تسأل نفسك، كمتلقٍّ لهذا الكلام: هل حصل فعل القتل؟ هل هو حقًّا فعل قتل؟ لم هذا التّناص؟ وما علاقة القدّيس ويسوع والرّبّ والجنّة بفعل القتل، وبالذّات المشوّشة والتّائهة في عالم من المتناقضات؟... أمام كلّ هذه المشاهد تجد نفسك، كمتلقٍّ، أمام معانٍ تفلت من بين يديك... فيحضر اللّامعنى أكثر من المعنى!...

كذلك فعل الضّرب الّذي مارسه الخاطفون على الرّجل في فترة الحرب الأهليّة (اختطافه إلى المنطقة الغربيّة)، بما يفترض أن يمثّله من مشاعر سلبيّة تتمظهر في الغضب والوجع والخوف على المصير، نراه هنا مولّدًا لمشاعر أخرى مختلفة كلّ الاختلاف، لردود فعل غير طبيعيّة كعدم إضاعة سعادته، وعدم إحساسه بالألم، والرّغبة في الغناء، ورؤية الفجر جميلًا... ''ظلّوا يضربون طويلًا... وفي لحظة واحدة عرفت حقيقة مدهشة جعلتني أدرك أنّي لم أضيّع سعادتي تلك أبدًا... صرت أرى الوجع كما في الحلم. أنا لست أنا. جسمي وليس جسمي. وكأنّي أتفرّج ... حين رأيت ذلك رحت أضحك... رأسي أبيض، ليس في داخله سوى رغبة في أن أستمرّ بأغنيتي الّتي كنت مستغرقًا في أنغامها... في ذلك الفجر الجميل...'' (٢٩-٣٠)

حتّى اللّقاء الجسديّ مع المرأة تجتمع فيه المتناقضات. فالرّجل بعد تقبيل المرأة يقول: ''... كأنّي رجال كثر وظلّ لرجل واحد في الوقت نفسه، ثقيل وطائر، فارغ وممتلئ، حارٌّ وطيّع...'' (٦٩) كذلك الحبّ لم ينج من التّناقضات: ''كانت كلّما أحبّتني أكثر اتّسعت عليّ. تتّسع وتكبر حتّى أصغر وأتضاءل...'' (٩١)

حتّى المرأة، محاور الرّجل أو الذّات شبه الوحيد، والطّرف الثّاني شبه الرّئيس في الرّواية، لم تأت صورتها واضحة، بالنّسبة إلى الرّجل، بل غارقة في المتناقضات. فالرّجل، من بدء الرّواية حتّى نهايتها، لم يقف على هيئة واضحة لها، ولم يستقرّ على نظرة ثابتة إليها. فهي لا تشبهه وهي نفسه (٩٤) ... صوتها ملتبس بين الأنوثة والذّكورة... صوت امرأة ورجل معًا. (٩٦) يشفق عليها ويحنق عليها (١١١) ينفر منها في النّهار ويشتدّ غرامه لها في اللّيل. (١٣٤) وحين رآها بيته وأهله عرف أنّه فقد بيته وأهله لأنّها لن تكون أيًّا منهم. (١٣١) ينظر إليها دائخًا خائفًا، زائغ الرّؤية ولكن مغتبطًا غبطة غريبة وعميقة... (٦٨) تغيب ليحضر هو (٨٨) ... هذه المرأة ليست امرأة وهي كذلك ليست رجلًا (١٨١) هي تشبه الآلاف كثيرًا ولا تشبههم أبدًا. لأنّها بينهم وأبدًا ليست معهم... لا يمكنها أن تكون له وحده. عليها أن تكون لهؤلاء جميعًا لأنّها ليست لأيّ منهم... (١٩٤) وعندما يعذّبها لا ترفض ولا تطلب منه أن يكفّ عن ذلك... (١٧١) وهذه المرأة تجعله غارقًا في التّناقضات، ينظر إلى جسمه ولا يطاله، يدور حوله ولا يستطيع الاقتراب... (١٦٦)

والتّناقض يطال علاقة الذّات بالآخرين أيضًا، إذ يقول: ''لأنّي حين أكون بينهم لا أكون بينهم بل على حدة.'' (٥١) حتّى المكان، الّذي تواجدت فيه الذّات، انتفت فيه الخصوصيّة واندمجت الأبعاد، فالهنا والهناك واحد: ''إنّها لن تقيم هناك لأنّي هنا ولأنّ هناك وهنا حال واحد جهنّم واحدة'' (١٥٥)...

إذًا، لقد حملت الكلمات المعنى ونقيضه، فلم يكن هناك من حسم، ولا من وصول إلى معان محدّدة ... ما جعل الذّات مشتّتة وغارقة في ضياعها وتشتّتها، وفي خضمّ من الاضطراب والازدواجيّة... وجعل الرّواية بعيدة عن إمساك المتلقّي بمعانيها وأهدافها وما تريد الكاتبة إرساله إليه... وجعل هذا المتلقّي يغوص في حالة من الدّهشة والتّساؤل والاستغراب... فـ ''العلاقة الملتبسة الّتي تجمع بين الدّال والمدلول حوّلت كلّ مدلول بدوره إلى دالّ في متتالية لانهائيّة يعجزان فيها عن إنتاج دلالة أو معنى ثابت ما يؤدّي إلى استحالة القبض على المعنى لأنّه ثمّة أنساق لغويّة أو أنظمة في التّعبير تتميّز بالانتقال المستمرّ أو الإحالة اللّانهائيّة لا تنفكّ عن الانزياح أو الانشطار المستمرّ إلى درجة التّلاشي والضّمور.'' (العجلتوني: ١٠)

ثالثًا: صورة الذّات المتخبّطة في عالم الجسد

لقد بدا واضحًا أنّ الجسد هو محور الرّواية، وأنّ الذّات متخبّطة في عالم هذا الجسد، خاضعة لسلطته، بعد أن ضيّقت مجال اهتمامها وحصرته في مسألة الجنس بكلّ ما يحمله من مشاعر ورغبات وأهواء... والّذي غدا محور أيّام هذه الذّات لا بل ساعاتها ولحظاتها... وجعلها رهينة اضطرابات نفسيّة وتهيّؤات تجعل النّاظر إليها يتوه عن حقيقتها وحقيقة ما يحصل معها... فالعلاقة الّتي تربط الرّجل بالمرأة، في هذه الرّواية، هي علاقة لا تتخطّى حدود الجسد وإن بطريقة غريبة غير واضحة في معظم الأحيان... حتّى إنّنا نستطيع أن نقول إنّها فارغة من الحبّ ومن أيّ معنى مؤكّد أو ذي أهمّية... والمرأة غير موجودة في حياته أو في قلبه، أو هو لا يراها إلّا في أثناء العلاقة الجسديّة ''حين لا أكون فوقها لا أراها'' (بركات: ١٧٨) ... والرّجل، في هذه الرّواية يضرب المرأة فيما هي لا تقاوم ولا تواجه : ''وإنّي ضربتها'' (١٥٤) ''أنهال عليها ضربًا. أنهال عليها ضربًا فتلتصق بي. أبعدها وأضرب كالأعمى فتلتصق بي بكلّ قوّتها.'' (١٨٢) وهذه المرأة تمارس الجنس مع الرّجل فقط لكيّ تكفّ بلاه عنها: ''كانت تعطيني كلّ ما أريد لكي أبتعد عنها، لكي أتركها بسلام لكي أحاول على الأقلّ الكفّ عن تعذيبها.'' (١٧١) ورغبة الرّجل في تعذيب المرأة، في هذه الرّواية، والتّمادي أحيانًا في إيلامها، يطرح الكثير من علامات الاستفهام حول هذا التّصرّف الذّي يبدو غير سويّ... تقول الدّكتورة "نوال السّعداوي" ''إنّ الرّجل السّاديّ، وبالرّغم من عدوانه الظّاهريّ على المرأة، إلّا أنّه، في حقيقة الأمر، يرغب في أن يأمل في أن تستمتع المرأة بالألم الّذي يحدث لها. ومعنى ذلك أنّ رغبته الحقيقيّة ليست هي الإيلام إنّما إحداث اللّذة والاستمتاع. ومن أهمّ المشاكل الّتي تواجه الرّجال السّاديّين والرّجال الماسوشيّين هي صعوبة حصولهم على المرأة الّتي يشعرون معها أنّها فعلا تحصل على اللّذة بهذه الطّريقة السّاديّة أو المازوشية.'' (العجلتوني: ٢٦)

لقد رأت الذّات أو هذا الرّجل أنّ الحياة تتمحور حول فعلين لا ثالث لهما، فعلان غرائزيّان وهما الأكل والجنس، الّذي، وإن سمّاه بالحبّ إلّا أنّه لم يتخطّ حدود الفعل الجسديّ الصّرف، بحيث وجد أنّ ''العمر بكامله يدور بين هذين الثّقبين: واحد للأكل وواحد للحبّ.'' (بركات: ١٨٨) ومع أنّ عنوان الرّواية هو "أهل الهوى" إلّا أنّ الحبّ أو الهوى لم يكن حاضراً بين صفحاتها، بل الجسد... حتّى إنّ الرّجل كان يفرح بسمنة المرأة ''لأنّ هذه السّمنة تبعدها عن شهوة الرّجال الآخرين'' (١٨٦)... وهو حين يريد استرضاءها يمنحها اللّذة الوحيدة الّتي بقيت بمقدوره وهي ممارسة الجنس (١٨٦) من دون أن نعرف إذا كان راضيًا عن نفسه في هذا الإطار، أو كانت هي راضية عنه... وعدم اليقين بالإشباع الجنسيّ يبرز كعنصر مهمّ في نظرة هذا الرّجل إلى ذاته وإلى المرأة في الطّرف المقابل...

وممارسة الجنس في الرّواية كانت فعلًا جسديًّا بحتًا لامس، أحيانًا، المشهد الحيوانيّ بكلّ غرائزيّته وخلوّه من العاطفة والإحساس والشّغف... فالرّجل يستخدم لوصف الجنس كلمات قابعة على مستوى المشهد الجسديّ البحت، أو الحيوانيّ فنراه يقول: ''حين لا أكون فوقها...'' (١٧٨) و ''أكون مجروحًا وموجوعًا كذئب حين أعوي فوقها...'' (١٨٢) وحين يصف ما تفعله المرأة معه لا يتوانى في استخدام مفردات تنتمي إلى عالم الحيوان لكي يصف نفسه، فيقول: ''تتشمّمني وتشمشمني كجرو أعمى...'' (٨٨) حتّى إنّ الصّورة الجسديّة لم تقف عند حدود الممارسة الجنسيّة، بل تخطّتها لتصل إلى تشبيه الذّات نفسها بالحيوان بشكل متكرّر في النّصّ ولافت للانتباه. فهذه الذّات المتمثّلة بالرّجل هي، تارة، ثور يركض في السّاحات (١١١)، وتارة أخرى ''مجرّد حمار أهبل''، تركته المرأة وسلبته كلّ شيء، حتّى مكانه وأهله وقبره (١٥٠) ... وحيوان ينبح، تروح المرأة تلاطفه ليكفّ عن عوائه وعن عضّ أعضائه (١٧٨) ... لدرجة أنّ هذه الذّات باتت تجسد الحيوان، فتقول بصريح العبارة ''أصغي بجسد إلى أخبار الحيوان والنّبات الّذي يتوالد من نفسه، وفيه عضوا التّأنيث والتّذكير. هذا جنس خلص من عذابه.'' (٩٥)

هذه العلاقة بين الرّجل والمرأة والمحصورة بالجسد أبعدت عنهما إمكانيّة علاقة سامية، ناجحة أو حتّى طبيعيّة... فعلاقتهما قائمة على الشّكّ في فرضيّة ثابتة خرج بها الرّجل، بحيث لا ''يضمن أيّ زوج في العالم أن تكون امرأته له وهي في الماضي لم تكن كذلك وفي المستقبل لا ضمان بأنها ستكون.'' (١٧٠) وهي قائمة على الخيانة وانعدام الثّقة في الاستمرار: ''تضيع النّساء منّا، يتركننا كما تركتني امرأتي. تركتني مرّتين. لكنّي عرفت حين تركتني في المرّة الأولى أنّي استرددتها بالقوّة وأنّها ستتركني مرّة ثانية. بما أنّها تركتني مرّة أولى عرفت أنّ خيانتها لي سوف تتكرّر وأنّ ما تفعله فيّ في قوّتها المتصاعدة وفي ضعفي المتزايد إنّما هو إفقاري من جنسي وإخراجي من جسمي ومن جميع أمكنتي. أخرجتني وأبقتني خارجًا في العراء.'' (١٦٦) لم يستطع الرّجل في علاقته مع المرأة، في هذه الرّواية، أن يحبّها حبًّا حقيقيًّا، أن يفهمها، أن يحترمها، أن يتقرّب منها، أن يرضيها، أن يقبل بها كما هي... فكانت تبتعد عنه إلى حيث لا يكون، إلى عدد لا نهائيّ من الاتّجاهات الّتي لا تكون صوبه، ولا يكون في أحدها (٧٤)

... كانت لا تحاكي رغبته في أن تكون مختلفة عن الآخرين، بحيث صارت حين يتكلّم إليها تسمعه كالآخرين وتحاسبه كالآخرين (١١٢، ١١٥). أمّا هو، ومن دون أن نعرف السّبب، فيزداد حزنًا وقهرًا على تشبّهها بأنماط شائعة، على انزلاقها من بين أصابعه إلى كثرة يعرفها. تبدأ تضيع منه في جموع من أجساد النّساء ذات الأفواه الكثيرة الكاذبة والملفّقة والتّعيسة. (١١٧) هذه المرأة لا تشكّل كيان الرّجل وعالمه، بل تسرق منه هذا العالم: مكانه الأخير، أهله، قبره... (١٥٠) وجودها في حياته عبثيّ لا صفات يمكن إعطاؤها له ولا أفعال يمكن إسنادها إليه : ''هكذا موجودة بجانبي وكفى. شيء لا يبعث على الحزن أو على الفرح لكن موجود. يروح ثمّ يعود ثمّ يستقرّ في مكانه في الهواء.'' (٦٤) وكذلك غيابها عنه أو تركها له، فهي ومن دون أيّ سبب تكفّ عن حبّه. (٥٤)

لقد دخل الرّجل في صراع مع ذاته ومع المرأة ناتج من عدم قدرته على التّحكّم في مصير علاقته بالمرأة، ما ترك عنده شعوراً بالضّعف والهزيمة، وقضّ مضجعه ومنعه من الوصول إلى المصالحة مع الذّات والعالم المحيط به. وقد يكون كلّ هذا دليلًا على الكبت الّذي تعانيه هذه الذّات وعلى الاضطراب الّذي تعيشه... إنّ هذه الذّات الذّكوريّة تعدّ عاملًا قاهرًا يحول دون انطلاقها في الحياة بشكل سويّ وطبيعيّ... فهي تعيش في إطار ما توفّر من معطيات، تتخبّط في خضمّ من الفشل والمادّيّة، ما جعلها عاجزة عن امتلاك نفسها أو السّيطرة عليها... فالأنا أو الذّات تائهة ضائعة مكبّلة نفسها بأغلال الجسد، فيما الـ "هو" غائب عن واقعها لا يؤدّي أيّ دور في فهمها أو تفهّمها أو حتّى مساعدتها...

وهذا الحضور المتكرّر للجسد ولأفعاله في هذه الرّواية ''يؤدّي إلى تكثيف المعاني وتاليًا إلى إرجائها ولا حسمها. فإنقاذ الدّال من سيطرة المدلول يؤدّي إلى تعدّد قراءات النّصّ المكتوب الّذي يؤدّي بدوره إلى انزلاقات للمعنى ينتج عنها الإرجاء واللّاحسم.'' (العجلتوني: ١٣) وهكذا، ''تؤدّي الكتابة إلى تفتّت التّماثل الدّلاليّ للإشارة، إنّ تكرارها في سياقات إبلاغيّة متنافرة يترع إلى توليد مفاعيل معنى متعارضة يمكنها أن تزعزع هويّة كلمة أو مفهوم.'' (زيما: ٧٨)

رابعًا: صورة الذّات الهجينة، الفارغة من الأهداف الحقيقيّة

تمثّل الشّخصيّة الذّكوريّة في رواية "أهل الهوى" أنموذجًا عن الأنا أو الذّات الإنسانيّة المنغرسة في جذور متخلخلة بسبب تعرّضها المستمرّ للنّسيان والضّياع، وبسبب خوضها بعض الممارسات الّتي عرفتها الحرب اللّبنانيّة، وتحديدًا حادثة الخطف. فنراها، وقد تملّكها الخوف من كلّ ما هو محيط بها، تعيش صراعًا ناتجًا من ميول مضادّة تتجاذبها نفسيّتها، ما جعلها قابعة في سجن محاولاتها الفاشلة من دون أن تعرف سبب هذا الفشل. فهذه الذّات لم تكن منشغلة في عمل ما، ولم ينسب إليها إنجاز ما، أو يسند إليها مهمّة معيّنة... ولم يكن لديها أحلام أو طموح أو خطط... بل حصرت اهتماماتها في تفاصيل يوميّة محدودة وتافهة، لا تبتعد عن إطار الجسد والانشغال به... فنراها تقول: ''انتبهت إلى أنّي لم أتزوّج وأن ليس لي بيتًا حتّى بالإيجار وأن ليس لي عمل ثابت، ليس لي امرأة ولا مكان.'' (بركات: ٨٣) ما قادها إلى السّقوط في الضّجر والفراغ واللّامعنى... ''أضع رأسي

أحيانًا تحت إبطي أو ركبتيّ وأتقوّس فوقه لعلّ سوائل أعضائي تملأ فراغه.'' (١٧) ''هذه المرأة الّتي تتابع النّظر إلى أصابع يديها تتأكّد مثلي كلّ مساء من فراغها... هذان فرغا من المكان وفرغ منهما المكان.'' (١٦١)

لا شكّ في أنّ حادثة الخطف الّذي حصل مع هذه الذّات والّذي تمّ في زمن الحرب الأهليّة اللّبنانيّة، قد أرخى بظلاله على هذه الذّات، وحوّلها إلى ذات هجينة، غير سويّة، غامضة، لا يقرّ لها قرار ولا تستطيع الاندماج في المجتمع المحيط بها، ربّما لأنّ قوانينه تتنافى مع تركيبتها النّفسيّة، أو لأنّها لا تريد هذا الاندماج ولا تسعى إليه... ما جعل الرّواية تتمحور حول الرّجل والمرأة صاحبي الهويّة الغامضة... فتكون شبه خالية من الشّخصيّات الأخرى ومن حكاياهم وتجاربهم وأفكارهم وأفعالهم كما من تفاعل الذّات معهم... فعاشت هذه الذّات في منأى عن المجتمع ... فلا ذكر لصديق أو عدوّ أو جار... ما أدّى إلى خلق هوّة كبيرة بينها وبين المجتمع وكل ما يحصل أو يمكن أن يحصل فيه، بين الـ "أنا" والـ "هو"، لذا نرى هذه الذّات، في جزء من حياتها، مرميّة في مستشفى المجانين. وبالتّالي، فهذه الذّات تشكّل أنموذجًا للشّخصيّة المستسلمة للفكر الهذيانيّ الّذي لا يعي الأمور كما يجب، ويكشف تنظيمًا خاصًّا بهذه الشّخصيّة النّائية عن الأطر الاجتماعيّة أو الطّبيعيّة. فهي قد أصيبت ''بانحلال في ذاكرتها الاجتماعيّة الّتي تختصّ بالانسان الاجتماعيّ... وما ذلك سوى دليل على انحلال الأنظمة المنطقيّة لذاكرة منطقيّة تستلزم نظامًا منطقيًّا أي تمثّلات جماعيّة وشاملة وموضوعيّة وثابتة...'' (جرجور ٢٠٠٧: ٦١)

وهذه الذّات غير راضية على نفسها وعلى غيرها، مع هذا، فهي غير ساعية لتغيير نفسها وغيرها، وعاجزة عن إيجاد حلّ أو طريق تخرجها من معاناتها، أو لربّما هي لا تطلبهما. فنراها تقول: ''كلّ هؤلاء البشر ماذا يفعلون؟ ويلحّ عليّ السّؤال ماذا يفعلون؟ يأكلون وينامون ويتغوّطون... ماذا يفعلون...'' (بركات: ٧٩) ما يفسّر لنا انتفاء الرّغبة لديها في السّعي إلى ما هو مميّز، أو مهمّ أو سام أو حتّى واضح، وحصر الأمر في مجرّد ممارسة الجنس. هي تعيش في هامش الحياة الواقعيّة. ما يجعلها منكفئة إلى عالم من صنعها، تدور في دوائره المفرغة، في خضمّ من الأوهام، وفي عالم من اليأس، لأنّ كلّ ما في الحياة يدعوها إلى اليأس الشّامل (٥٢)... وما عدم وجود اسم لكلّ من الرّجل والمرأة إلّا تعبيرًا عن انعدام وجود هويّة واضحة المعالم، ثابتة السّمات والتّفاصيل والأهداف لكلّ منهما، وبالتّالي، تأكيد على انعدام الخصوصيّة في كلّ ما حصل في هذه الرّواية... فهذه الذّات الّتي تصف نفسها بـــ "الــكائن الخرافيّ" (٥٠) وتصف عقلها بـــ ''المريض المفكّك الفالت على هواه.'' (١٩٧) هي تائهة عن ذاتها، تحتار في من تكون (١٤٧)، وهي بالكاد مقتنعة بأنّها موجودة. (٥٧) حتّى إنّها لم تعد تعرف لحياتها أيّ ضرورة. (١٦٧)

في رواية "أهل الهوى" غاب الأمل في تحقيق أيّ نضج على المستويين الخاصّ والعامّ، كما غابت خطابات التّمجيد والبطولات والتّضحية، ما أدّى إلى انتشار خطابات الفشل والعاديّ الّتي جعلت الذّات تائهة مقهورة بعيدة عن أداء أيّ فعل ذي قيمة، بعيدة عن تشكيل كينونتها وهويّتها،

غارقة في غياهب النّسيان، بعد أن رسمت لنفسها ملامح إنسان يعبّر عن نفسه في تكرار مجموعة من المفردات الفارغة الّتي تؤطّر عالمه، ومنها: الصّمت، صَمَتْنا، صامت، خائف، مسكين، مريض، فراغ، فارغ، جسم، لذّة، عذاب، فشل، لامبالاة، لا مكان، لا ذاكرة، النّسيان، نسياناتي، أنسى، نسيتُ، سكتٌّ، امرأة، ذكَرٌ، أنثى...

إذًا، هذه الذّات عاجزة عن العودة إلى الماضي بجرأة وحريّة ووعي. ''ورحت أنا في النّسيان.'' (١٦) ''أنسى نسياناتي الكثيرة'' (١٧) ''تعاودني نسياناتي الكثيرة.'' (٧٧) ''ما عدت أذكر كيف تمّ تبادل المخطوفين... ذلك بسبب نسياناتي الكثيرة.'' (٣٦) ''حين ولدنا نسينا.'' (١٦٠) ''ربّما تذكّرني بأمر قبيح أتيته في النّهار ونسيته بالطّبع.'' (١٧٢)... وروايتها هي رواية الحاضر الّذي نتج من حادثة مؤلمة تركت أثرها في داخل هذه الذّات، إذ غاب الماضي بكلّ ما يحمله من ذكريات واضحة يمكن الرّكون إليها، والبناء عليها من أجل غد أفضل...كما غاب المستقبل بكلّ ما قد يحمله من رؤى وأحلام ورغبات وتطلّعات وأهداف...وبالتّالي، غاب الحاضر بكلّ ما قد يحصل فيه من وجود فعليّ قيّم وجليّ وفاعل... ''تبقى أسئلتي معلّقة في الشّمس والهواء.'' (١٨٤) ويفسّر علمُ نفسِ الذّاكرةِ هذا العجز في العودة إلى الماضي بعجز الوعي عن فهم الحاضر وعجز الماضي عن أداء وظيفته الموجّهة للفعل. فالذّات تتذكّر ما تريد، وهو قليل جدًّا، وتنسى العديد.لقد ضعفت علاقة هذه الذّات بالماضي، ففقدت، بهذا، علاقتها بالزّمن، وبالتّالي، علاقتها الوجوديّة الحقيقيّة بنفسها وبالنّاس من حولها. فكان نسيانها ''نسيانًا كارثيًّا تحوّل إلى عائق أمامها، ومنعها من تذكّر الماضي وما فيه من حسنات وسيّئات، فافتقدت بذلك القدرة على تقييم وضعها الحاليّ وعلى تمييز الفعل الجيّد من الرّديء، وتاليًا، افتقدت القدرة على مجاوزة الخطأ أو تصحيحه.'' (٨) لقد أتى النّسيان في "أهل الهوى" نتيجة آليّات دفاعيّة مرتبطة بالصّدمة الّتي تعانيها الذّات: ''يعتقد جابر أنّ أحوالي تسوء حين أنسى ولا يعرف أنّها فرصتي للرّاحة.'' (٧٨)، ''للمصالحة عن طريق النّسيان والمحو وكأنّ شيئًا لم يكن.'' (١٨٦) وتبعًا للتّحليل النّفسيّ، ليست مسألة النّسيان مسألة عفويّة لأنّ الذّكريات تترك فينا تأثيرات داخليّة تفوق تصوّرنا. وما نتذكّره أو ننساه يعود إلى احتياجات وعينا الدّاخليّ. يرى علمُ النّفس النّسيانَ بمثابة عمليّة دفاعيّة لا شعوريّة يكون الغرض منها الهروب من موقف يثير حالات وجدانيّة مؤلمة... هو نسيان لمحتوى معيّن. يرى العالم النّفسيّ النّمساويّ "فرويد" (Sigmund Freud) أنّ النّسيان بديل لشيء أعظم أهميّة يرتبط بسلسلة من التّرابطات الفرديّة والاجتماعيّة، هو النّسيان الانتقائيّ.

وقد زاد المكان والزّمان هذه الذّات قهرًا وتغييبًا... فباتت تعتبر نفسها أنّها موجودة في المكان وكأنّها مادّة يمكن أن توضع هنا وهناك... ''ففي الحروب الدّاخليّة ينتفي المكان. يترك ثباته ليتحرّك كالهولوغرام ومعه النّاس الفارغون من أمكنتهم في فضاء المعارك المضيئة.'' (١٦١) من هنا، فقدت علاقتها بالزّمن، وتاليًا، فقدت علاقتها الوجوديّة الحقيقيّة بنفسها وبالبشر من حولها، وتجذّرت في رؤية مكانيّة أدّت إلى فقدانها جوهرها وكينونتها الحقيقيّة ... يقول الفيلسوف

الفرنسيّ "هنري برغسون" (Henri Bergson): ''إنّ اللّحظات الّتي نمتلك فيها ذواتنا نادرة وهذا ما يجعلنا نادراً ما نكون أحرارا.''

خامساً: الخاتمة

وبعد هذه القراءة السّريعة، يمكننا الخروج بالنّتائج التّالية: -

١- لقد بدت الذّات في رواية "أهل الهوى" غامضة، مشتّتة، تائهة في عالم من المتناقضات، ماجعل معظم الوقائع والأحداث والصّفات تحمل المعنى ونقيضه. وما جعل المتلقّي عاجزاً عن الوقوف، في هذه الرّواية، على معنى واضح أو محدّد، وجعل هذه الذّات توغل في ضياعها وتشتّتها واضطرابها وازدواجيّتها...

٢- إنّ الذّات تتخبّط في عالم الجسد الّذي بات محور الرّواية. فهي قد ضيّقت مجال اهتمامها، وحصرته في الجسد وما يدور في فلكه من مادّيّة وغرائز، وتحديداً الجنس... حتّى وصل بها الأمر إلى المشهد الحيوانيّ... ما أفشل العلاقة بين الرّجل والمرأة، وجعل الذّات عاجزة عن امتلاك نفسها وعن التّفاعل مع الآخر الّذي كاد يغيب من الرّواية.

٣- لقد كانت صورة الذّات هجينة فارغة من الأهداف الحقيقيّة. فهي لم تكن منشغلة في عمل ما، ولم ينسب إليها إنجاز ما، ولم يكن لديها أحلام أو طموح... بل كانت غارقة في عالم النّسيان الّذي أفقدها علاقتها بالزّمن، وفصلها عن ماضيها ومستقبلها، ففقدت علاقتها الوجوديّة الحقيقيّة بنفسها وبالبشر...

٤- لقد كانت هذه الذّات ضحيّة ما قد يفعله الآخر بها، وكيف يمكن أن يسم نفسها وروحها بسمات قد تكون خارجة عن إرادتها ورغبتها وتطلّعاتها... لقد ساهمت الحرب، وتحديداً حادثة الخطف، بتفريغ هذه الذّات من جوهرها وكينونتها، وبإيغالها أكثر في الاضطراب والارتباك والضّياع واللّاهويّة... وكانت هذه الحرب بمثابة دليل على أنّ بعض الأفعال الّتي يقوم بها البشر، في أثناء الحروب والتّعدّيات، لا تمرّ مرور الكرام، وهي قد تشوّه أجمل ما يمكن أن تعيشه الذّات الإنسانيّة وهو الهوى أو الحبّ... هي قد تقتل جوهر هذه الذّات وتلغي استقامة كينونتها ووضوحها.

في هذا الخضمّ والكمّ من الفاشل والعاديّ والغامض والمادّيّ والفارغ والمفكّك... على أيّ صورة للذّات نتكلّم في هذه الرّواية؟... ما هي الرّؤى الّتي قد نتوقّعها من ذات فرغت كلمتها من المعنى، وجعبتها من أخبار البطولات والتّضحيات والنّضالات والقيم والفضائل والنّجاحات، وتقوقعت في بوتقة الجسد والفراغ واللّاشيء؟...ما هي الرّؤى الّتي قد نتوقّعها من مجتمع كان له اليد الطّولى في تكوين ملامح هذه الذّات، وإن لم يكن له الحضور اللّافت في الرّواية؟..."أهل الهوى"!... إنّ الهوى أو الفعل هو بريء من الذّات الّتي رسمتها هذه الرّواية!.

*** المراجع**

اولاً- المراجع العربية

بركات، هدى. أهل الهوى. دار الآداب، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠١٢.

أيوب، نبيل. نصّ القارئ المختلف (٢) وسيميائيّة الخطاب. بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ٢٠١١.

العجلتوني، رانيا. صورة البطل في رواية "أوكي مع السّلامة"، ٢٠١٥

جرجور، مهى. الذّاكرة والرغبة في الكتابة. لبنان، دار المكتبة الأهليّة، ط١، ٢٠٠٧.

زيما، بيير. التّفكيكيّة: دراسة نقديّة. تعريب أسامة الحاج، بيروت، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ط٢، ٢٠٠٦.

ثانياً- المراجع الأجنبية

Derrida, Jacque. La Dissemination. Paris, Seuil, 1972.

Derrida, Jacque. Lecriture et la difference. Paris, Seuil, 1967.